الفصل السابع
تألق المدرسة التاريخية المصرية
وأشهر
مؤرخي القرن التاسع الهجري

القلقشندي.

القريزي.

السخاوي.

السيوطي.

الفصل السابع
تألق المدرسة المصرية وأشهر
مؤرخي القرن التاسع الهجرى

يوالى المؤرخون المصريون كتاباتهم التاريخية علي النحو الموسوعي، فظهر عدد كبير من رجالاتها وعلي رأسهم القلقشندي والسخاوي والسيوطي وغيرهم ومن أضافوا بحق من التأريخ أبعاد جديدة، وافادوا المدرسة التاريخية الاسامية صيغة عامة والمدرسة التاريخية المصرية بصفة خاصة، وامدوها بروافد جديدة في صناعة علم التاريخ ومن الكتابة والتأليف فيه

القلقشندي: القاضي أبو العباس أحمد: ولد عام ست وخمسين وسبعمائة، وسمع علي عدد من شيوخ مصر من بينهم ابن الشيخة. ترجم له السخاوي في الضوء اللامع، والعماد الحنبلي في شذارت الذهب وذكره المقريزي وابن تغري بردي والعيني وغيرهم.

والقلقشندي من أبناء مصر، ولد بقرية قلقشندة إحدي قري محافظة القليوبية وهو أحد القضاة الشافعية درس الفقه واللغة والأدب، وأجازه الشيخ الإمام الشافعي وهو في الحادية والعشرين من العمر، ويصفه أبو المحاسن فيقول: كان إماماً فقيهاً بارعاً في العربية، مشاركاً في الفقه والفرائض

وارتفعت مكانته الأدبية فجلس للإفتاء وعرض عليه كثيرون من تلامذته ما حفظوه في الفقه والأصول وعلوم العربية فأجازهم. وهو بهذا قد بلغ مكانة رفيعة في الحياة الثقافية والفكرية في مصر، وقد أهلته هذه المكانة بالإضافة إلي براعته في التأليف والكتابة لتولي بعض المناصب الإدارية الهامة في بلاط السلطان المملوكي الظاهر برقوق فالتحق بديوان الإنشاء عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م وكان أحد موقعي الدست ونواب الحكم.

وقد ترك لنا القلقشندي عدداً من الأعمال الأدبية والتاريخية كان أهمها

وأشهرها صبح الأعشي في صناعة الانشا، وكتاب نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب في الأنساب وكتاب قلائد الجمان في قبائل العربان وكتاب الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع.

وقد سار القلقشندي في مؤلفاته علي نهج االقاضي الفاضل وابن نباته وفضل الله العمري ممن سبقوه من أعلام الكتابة والانشاء. ويوضح لنا القلقشندي في مقدمه كتابه صبح الأعشي السبب الذي من أجله وضع هذا الكتاب فيقول:

«والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التأليف وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف، ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها، وأخري جنحت إلي ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها، وطائفة لمن بعدهم يسلك سبيلها من أراد أن ينسج علي منوالها، ولم يكن فيها تأليف جامع لمقاصدها ولا تأليف كافل بمصادرها الجليلة وموارداها.(١)

والقلقشندي هنا ينتقد طريقة الكتابة التي سبقت تأليفه الكتاب، ويضع لنفسه نهجاً أراد به أن يطور الكتابة الأدبية والتاريخية معاً ويستدرك علي من سبقه ما فات عليهم ويضيف تجربته العلمية التي اكتسبها خلال دراساته المتنوعة وخلال عمله في ديوان الانشاء.

ويري القلقشندي أن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها، ولا يجوز العدول عنها إلي ما سواها ولذلك ضمن كتابه صبح الأعشي الأصول والقواعد والأسس التي رأها أساسية لهذا الفن كما بين القوانين التي تحكمها وتحكم القائمين عليها.

ويلتمس القلقشندي العذر من قرائه وتلاميذه فيقول: «وليعذر الواقف عليه فتائج الأفكار علي اختلاف الفرائح لا تتناهي وإنما ينفق كل أحد علي قدر سعته ولا يكلف الله نفساً الا ما أتاها ورحم الله من وقف علي خطأ فأصلحه عاذراً لا عاذلا ومنيلاً لا نائلا فليس المبرأ من الخطل إلا من وقي الله وعصم وقد

---

(١) القلقشندي صبح الأعشي في صناعة الانشا، جـ١، ص ص ٧ ٨

(٢) القلقشندي- صبح الاعشي جـ١، ص ١

قيل: الكتاب كالمكلف لا يسلم من المؤاخذه ولا يرتفع عنه القلم.(٢)

وقد قسم القلقشندي كتابه صبح الأعشي كما يذكر في مقدمته إلي مقدمة وعشر مقالات وخاتمة.

أما المقدمة ففي مباد يجب تقديمها قبل الخوض في كتابه الانشاء وفيها خمسة أبواب:

تحدث في الباب الأول عن فضل الكتابة والكتاب ومدح فضلائها وذم حمقاهم. والباب الثاني في مدلول الكتابة لغة واصلاحاً، وبيان معني الانشاء وتفصيل كتابة الانشاء علي سائر أنواع الكتابة.

وجاء الباب الثالث في صفات الكتاب وآدابهم، وخصص الباب الرابع في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام وتفريقه في الممالك.

واهتم القلقشندي في الباب الخامس بقوانين ديوان الانشاء وترتيب أحواله وآداب أهله وذكر وظائف وسلطات متوليه وخصص الباب الخامس فيما يحتاج إليه الكاتب.

ثم يناقش القلقشندي بعد ذلك في مقالاته المتخصصة أحوال المسالك والممالك، والخلافة، ونظم الإدارة في مصر والبلاد الإسلامية، والرسائل الواردة إلي الديوان والصادرة عنه والأصول المرعية في تدوين تلك الرسائل والعهود والمواثيق والمعاهدات والبريد وغير ذلك من الأمور التي وجدها متعلقة بموضوع الكتابه.

وما يهمنا في مؤلفات القلقشندي هي كتاباته التاريخية التي شملت التاريخ الإداري لمصر حيث بين في كتابه صبح الأعشى الأصول التي سارت عليها نظم الدواوين كما وضح لنا أسس العلاقات بين حكام المسلمين وجيرانهم من ملوك وأمراء وأباطرة العالم آنذاك وهو بهذا يكون قد سبق عصره بأن وضح أسس المراسلات الدولية وأساليب البروتوكول التي يجب أن تراعي في هذا المجال.

وقد أكد القلقشندي علي أهمية التاريخ للكاتب فقال: أعلم أن الكاتب يحتاج إلي معرفة وقائع التاريخ وتفاصيلها ولا يكاد يستغني عن العلم بشيء منها

لامورمنها: العلم بأزمنه الوقائع والماجريات، وأحوال الملوك والاعيان والحوادث، والماجريات الحاصلة بينهم، فيجنح بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك، فإنه متي أخل بمعرفة ذلك احتج بالقصة في غير موضعها، أو نسبها إلي غير من هي له، أو لبس عليهم خصم في الاستشهاد بواقعة لا حقيقة لها، أو نسبها إلي غير من هي له ليظهر حجته عليه.(١)

وقال أيضا أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له، وقدأكثر الناس فيه من التصنيف علي اختلاف فنونه، ما بين مختصر ومبسوط، من مقتصر علي فن ومستوعب لفنون، وفي تلك المصنفات نوادر غريبه ولطائف عجيبة لا يحصل بعد استعابها بالمطالعة كما لا يقع الظفر بالجوهر في المعدن الا بعد عمل كثير يحصل من خلالها علي بغيته فاذا التقطت الجواهر من المعدن سهل تناولها لمريدها (٢)

إن القلقشندي قد قعد للكتابة الديوانية بعد دراسة تاريخية زمنية لنشأتها وتطورها، ثم حدد أصولها قوانينها ثم قدم بعد ذلك دراسة فريدة متميزة شملت التاريخ العام والتاريخ المحلي، والنظم الإدارية، والعلاقات الدولية الإسلامية، والسياسية الخارجية لمصر باعتباره قد شغل وظيفة إدارية هامة في ديوان الانشاء يواري ديوان وزارة الخارجية في النظم السياسية الحديثه.

ولعنا لا نستطيع أن نغفل الحديث عن دور فضل الله العمري في هذا المجال في كتابه المصطلح الشريف إلا أن القلقشندي قد تفوق وتميز علي سابقيه بحيث جعل للكتابه سمتا خاصاً وأسلوباً متفرداً ومجالاً شاملاً برع فيه مؤرخا سياسياً وإدارياً يوضح لنا مدي ما وصلت إليه المدرسة التاريخية المصرية من مكانه في تلك المرحلة. (٣)

وامتدت عناية المؤرخين المصريين إلي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي فكان

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشي: جـ١، ص٤١٢.

(٢) انظر محمد عبد الله عنان- مؤرخو مصر الإسلامية وص ص ٧٦: ٨٤

(1) Cibb. The Islamic Background Of Ibn Khaldun. s Political Theory. Studies On Islamic civilization PP 166- 165 london

المقريزي رائدا من رواد هذا المجال الذي يرتكز عليه المؤرخون المحدثون باعتباره مجالاً جديداً من التأليف التاريخي الذي نتج عن ادراك لحركة المجتمع أسهمت في تغيرة وتطوره، مما ظهر واضحا في اهتمامات المؤرخين المصرين من رجال القرن التاسع الهجري حيث اتجهوا إلي العناية بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي.

لكننا نستطيع أن نقرر ونحن مطمئنين إلي أن مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي قد عرفته وأصلته المدارس التاريخية الإسلامية، وبصفة خاصة المدرسة المصرية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشرالميلاديين هذا التفاعل بوضوح عند ابن خلدون الذي استطاع أن يصل بحسه التاريخي ونظرته المحللة المدققة إلي قمة ميزته في العالمين الشرقي والغربي وجعلته مؤسساً لنظرية جديدة وعلم جديد.

لقد بهر ابن خلدون المفكرين في الشرق والغرب علي السواء، مما جعل المفكرين الغربيين يقفون كثيراً عند أعماله، ويحللون أفكاره ونظرياته، فهذا جب يقول إن ابن خلدون هو المؤسس لعلم جديد هو علم الاجتماع أو بعبارة أخري هو المؤسس لعلم التاريخ وفلسفته، إنه يحلل العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية باعتبارها المحفزة لقيام الوحدات السياسية وصولاً إلي نشأة الدولة.(١)

ومن ناحية أخري فإن المنهج الذي اتبعه ابن خلدون في مقدمته يجعله مؤسساً لعلم جديد اعتمد بالدرجة الأولي علي طريقة علمية في البحث

Scientific Method Of Inquiry

إنه عندما يتحدث عن الحضارة الإنسانية، وعن الدولة، وعن المواطنين في الدولة، أدخل مفاهيم جديدة إلي العقلية الوسيطة عموماً وعقلية أوربا في العصور الوسطي بصفة خاصة مما مهد دون شك إلي قيام النهضة الأوروبية.

ولعل شهادة المؤرخين والمفكرين الأوربيين لابن خلدون بهذا السبق تعد أهم

(١) السخاوي- التبر المسبوك- ص٢٣ -٢٣، اختلف في سنة ولادته ووضعها المؤرخون الذين ترجموا له عامي ٧٦-٧٦٩هـ، وقارن المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج١،ص ص ٤١٥ ٤٢

دليل علي اعترافهم بدور الفكر الإسلامي ودور العقلية الإسلامية في تعديل وتطوير المفاهيم الأوروبية: في صناعة الكلمة وكتابة التاريخ، إن روزنتال يؤكد علي أن منهج وأسلوب ابن خلدون إنما هو منهج فريد متميز لم يسبق إليه، بل يعد ظاهرة متفردة في القرن الرابع عشر الميلادي.

إن هذه المداخله إنما نقصد بها التأكيد علي أن مصر بمدرستها التاريخية قد استطاعت أن تسهم في تغيير المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في ذلك الوقت وكان المؤرخون المصريون ومن بينهم ابن خلدون من العلامات المميزة فيما ألف وصنف من أعمال جمعت خلاصة التجارب والأفكار التي أسهمت في ذلك التغيير.

لقد شهد عصر المقريزي مرحلة هامة في تاريخ مصر والأمة الإسلامية جميعاً هي المرحلة الانتقاليه من عصور سادت فيها وتسيدت إلي مرحلة ضعف النظم السياسية والاقتصادية وانهيارها، وتقلب المجتمع والدولة في أنظمة جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل.

والمقريزي قاهري مصري حنفي شافعي ترجم له السخاوي في التبر المسبوك فقال: انه ولد بالقاهرة في سنة ست يقصد ٧٦٦هـ ونشأ بها نشأة حسنة فحفظ القرآن الكريم وسمع الحديث من جده لأمه العلامة الشمس بن الصائغ الحنفي والبرهان الآمدي والعز بي اليمن بن الكويك والنجم بن رزين والشمس بن الخشاب والتنوخي وابن الشيخة وابن أبي المجد والسراج البلقيني والزين العراقي وغيرهم . (١)

ويضيف السخاوي أنه شغل كثيرا من الوظائف علي الشيوخ ولقي الكبار وجالس الأئمة فأخذ عنهم وتفقه حنيا علي مذهب جده لأمه وحفظ في فقه الحنيفة كتاباً.

أما عن أعماله فيقول: ناب في الحكم وكتب التوقيع وولي الحسبةفي القاهرة

(١) - السخاوي. التبر المسبوك ص ص ٢٣-٢٤

غير مرة. وتولي الخطابة بجامع عمرو وبمدرسة السلطان حسن والإمامة بجامع الحاكم وقراءة الحديث بالمؤيدية ويشهد له السخاوي بأنه قد حمدت سيرته في مباشراته واتصل بالظاهر برقوق ودخل دمشق مع ولده الناصر وعرض عليه قضاءوها غير مرة فرفض.

واستطاع المقريزي أن يصل إلي العديد من المناصب الهامة في مصر سواء في مجال التدريس أو الخطابة أو القراءة أو المناصب الإدارية. فقد تولي قراءة الحديث والوعظ بمساجد القاهرة، وتولي الخطابة بمسجد الفسطاط وبمدرسة السلطان حسن، وتولي الإمامة والنظر في جامع الحاكم.(١) وتولي الحسبة وناب في الحكم وكتب التوقيع. كما تولي عدداً من الوظائف في دمشق وكان دخلها مع السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق، فدرس في الأشرفية وتولي نظر وقف القلانس والبيمارستان النوري.

وزار المقريزي الأراضي المقدسة، وجاور بها، وحدث في مكة المكرمة وتدرج المقريزي في الوظائف الدينية والتدريسية والإدارية في مصر والشام.

ويقول المقريزي: عن نفسه إن أول عهده بالوظائف الحكومية ديوان والانشاء بالقلعة حيث عمل به موقعاً أي كاتباً حتي عام ١٣٦٨م ثم عين نائبا من نواب الحكم أي قاضياً عند قاضي القضاة الشافعية.

حج المقريزي غير مرة وجاور في مكة والتقي بعلمائها وشيوخها وحدث فيها بكتابه حسن الاستماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع، ويخبرنا السخاوي أنه كان يحب أنه يكتب بمكة ويحدث بها.(٢)

وفي مكة أيضا التقي بالكثير من الحجيج الذين نقلوا إليه أخبار بلادهم وخاصةجنوب الجزيرة العربية وبلاد الحبشة مما أضاف إلي تجربته وخبرته الشيء الكثير، ومما انعكس ولا شك في كتاباته ومؤلفاته وخاصة كتاب الإلمام فيمن تأخر

---

(١) فاروق محمد عبد الله عثمان مؤرخو مصر الإسلامية ص ص ٨٧- ٨٨

(٢) السخاوي البنير المسبوك ص ص ٢٢ ٢٣

بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.

وبعد رحلة طويلة من العمل والسعي والعلم والتعليم حط المقريزي رحاله بالقاهرة زاهداً في الحياة العامة والوظائف الحكومية عاكفاً علي صياغة تجربته الخصبة في التأليف والكتابة.

يقول السخاوي: ثم أعرض عن ذلك وأقام ببلده عاكفاً علي الاشتغال بالتاريخ حتي اشتهر وبعد صيته وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحد فأخذها وزادها زوائد غير طائلة.(١)

وتنوعت مصنفات المقريزي واتسعت مجالاتها فمنها ما عني بالتاريخ المحلي لمصر والقاهرة مركزاً علي جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها، ومنها ما اختص بتاريخ الأئمة الخلفاء الفاطميين، ومنها ما أفرده المقريزي لقضايا محددة كالنقود والموازين والمكاييل إلي غير ذلك من المجالات التي وضعت المقريزي علي درجة متميزة بين رجال التاريخ في مصر وفي المدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع الهجري، ويكفي أن نشير إلي أن مؤلفاته قد زادت علي المائة مؤلف أو يزيد إذ يذكر السخاوي: قد قرأت بخطه أن تصانيفه زادت علي مائتي مجلد كبار. (٢)

ومن أهم أعماله:

١- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

٢- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمه الخلفاء.

٣- البيان والأعراب عما بمصر من الأعراب.

٤- الإلمام فيمن تأخر بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.

٥- التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم.

٦- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

---

(١) قارن محمد مصطفي زيادة. المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري. ص ص ١٠، ١٢

(٢) السخاوي: التبر المسبوك. ص ص ٢٢: ٢٣

٧- شذور العقود في ذكر النقود .

٨- الأوزان والأكيال الشرعية .

٩- ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري.

١٠- الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة.

١٢- الإشارة والاعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام .

١٤- السلوك بمعرفة دول الملوك

وقد وصل المقريزي بجهوده المضنية في التأليف والكتابة إلي درجة أثارت عليه بعض الحاسدين، وربما كان هذه المكانة محركاً لدي السخاوي الذي انتقد جهد المقريزي واتهمه بالتزييف، ووجه إليه النقد اللاذع مما يعكس تحاملاً بل كراهية شديدة لم تقلل بالطبع من قيمة الأعمال الكبيرة التي تركها المقريزي، ويكفي أن نورد التقييم الذي وضعه القاضي ابن حجر للمقريزي وأعماله في ترجمته له إذ يقول: إن له النظم الفائق، والنثر العابق، والتصانيف الباهرة خصوصاً في تاريخ القاهرة فأنه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها وجدد مآثرها وترجم أعيانها.

لم يقلل القدح اذن من قيمة الأعمال الكبيرة التي تركها لنا المقريزي ذلك أن الأساس في البحث أن يعود الباحث إلي الأعمال السابقة ويفيد من جهود أساتذته والعلماء السابقين عليه دون أن يضيع تلك الجهود أو أن يصمت عن الإشارة إليها، وقد ذكر المقريزي ذلك واعترف بانتفاعه بمسودات الأعمال السابقة عليه وإن كانُ الأستاذ الدكتور مصطفي زيادة رحمه الله قد اشار إلي ان المستشرقين لم يستطيعوا أن يدفعوا تهمة السخاوي للمقريزي أو أن بدلوا برأي حاسم فيه (١)

ونحن لسنا في حاجة إلي شهادة المستشرقين أو محاولاتهم في تبرئة المقريزي من اتهامات السخاوي له، كما أننا لا يهمنا أن نأخذ برأي كاترمير Quatremere بالسكوت عن هذا الأمر وعدم إثارة القضية، ولا ندري

---

(١) قارن محمد مصطفي زيادة المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري ص ص ١٠١-١١١

لصالح من تؤخذ الأمور علي هذا النحو، فإذا كان السخاوي يثير القضية وهي قضية هامة في البحث العلمي فلا نعتقد أن السكوت عنها يؤدي الي نتيجة وإنما إثارتها والبحث عن أصلها أولي بنا إن أردنا الوصول إلي الحقيقه.(١)

والمقريزى من المؤرخين الذين يوردون إسنادهم، ويذكرون مصادرهم وما كان يضيره أن يذكر الواحدي مثلما ذكر من أخذ عنهم في كتاب الخطط، ونحن في هذا نتفق مع الرأي الذي أورده الأستاذ المؤرخ محمد عبد الله عنان بصدد هذه القضية الهامه الذي خلص فيه إلى ما يلي: (والخلاصة أن هذا الإتهام الذي يلح السخاوي في نسبته إلي مؤرخ الخطط لا يثير في نظرنا ذرة من الريب في عظمة المجهود التاريخي الذي تقدمه الخطط وفي روعته وطرافته).(٢)

لقد استطاع المقريزي علي كل حال ان يضيف إلي الكتابة التاريخية، وأن يؤرخ لفتره دقيقة من تاريخ مصر استطاع خلالها ان يضع منهجا وأسلوبا انفرد به والتصق باسمه كما استطاع بذلك المنهج أن يرد علي الاتهامات التي وجهت إليه والتي تعبر عن الغيرة والحسد التي تنشأ بين أبناء المهنة الواحدة مما لا يزال موجودا في ايامنا هذه.

وقد شهد له ابن تغري بردي وأكد أستاذيته فقال: (وكان إماما مقننا، كتب الكثير بخطه، وانتقي أشياء، وحصل الفوائد، واشتهر ذكره في حياته وبعد موته في التاريخ وغيره، حتي صار يضرب به المثل، وكان له محاسن شتي، ومحاضرة جيدة إلي الغاية لا سيما في ذكر السلف من العلماء والملوك وغير ذلك، وكان منقطعاً في داره، وملازماً للعبادة والخلوة قل أن يتردد إلي أحد إلا لضرورة).

واختتم ابن تغري بردي ترجمته بقوله: ولم يزل ضابطاً حافظاً للوقائع إلي أن توفي يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وثمانمائة، ودفن في الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من القاهرة، رحمه الله تعالى) (٣)

---

(١) قارن محمد مصطفي زيادة: المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري: ص ص ١٠، ١١

(٢) محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الاسلامية ص ص ١٠١، ١٠٢.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي-حـ١، ص٤١٧.

السـخـاوي:

وعندما قـاربت المدرسة التاريخـية المصرية علي اختـتام ذلك العهـد الزاخر بالمعارف والـعلوم، الزاهر بأئمة المؤرخـين الأعلام يظهـرشمس الدين الســخاوي ٨٣١:٩٠٢هـ/ ١٤٢٨ : ١٤٩٦م.

الــسـخـاوي من رجـال القـرن التـاسع الهـجـري الذين أثـروا الحـيـاة الفكريةوالثقافيـة في القاهرة بل إن ظهور الـسخاوي وتلميذه ومنافـسه السيوطي في أواخر هذا القرن نفثـه أخيرة من نفثات هذه الحركـة القوية التي لم تلبث أن خبت بعد ذلك وأنهارت أمام الفتح العثماني.(١)

والـسخاوي مـؤرخ أنجبته مصر فـأصله يعود إلي سخا إحدي قـري محافظة الغربيـة لكنه قاهري المولد والنشـأة والتعليم، وقدْ كـان منزله مجـاوراً لمنزل لإمام العلامة ابن حجر العـسقلاني مما أثر ولا شك فيه تكوينه العلمي منذ نعومة أظافره.

لقد لازم الـسخاوي شيـخه الإمام ابن حـجر فتـعلم علي يديه علوم الدين واللغـة والأدب والتاريخ فـقد كـان ابن حجـر في ذلك الوقت علماً مـن أعلام القاهرة ورائداً من رواد الحركـة العلمية فيـها،ولذا نري السخاوي قد لازم شـيخه ولم يفارقه ولـم يغادر القاهرة حتي وفاته وذلك في عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م.

ترجم للسخـاوي ابن العماد فقـال: ولد في ربيع الأول سنة إحدي وثلاثين وثمانمائة، وحفظ القرآن العظيم وهو صغيـر وحفظ عمدة الأحكام والتنبيه والمنهاج وألفية العراقي وغالب الشاطبية والنخبـة لابن حجر وغير ذلك، وكلما حفظ كتاباً عرضه علي مشايخه،وبرع في السنة والعـربية والقرآن والحديث والتاريخ، وشارك في الفرائض والحساب والتفسير وأصول الفقه والمسبقات،وأما مقروءاته ومـسموعاته فكثيرة جداً لا تكاد تنحصر.(٢)

كما ترجم الـسخاوي لنفـسه في الضوء اللامع ترجمة تفصيلية اقـتداء بشيخه

---

(١) قارن: محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، ص١٠٢

(٢) السخاوي الضوء اللامع جـ٨،ص٤ ٥

واستاذه ابن حجر العسقلانى

يتحدث السخاوي في ترجمته عن نشأته وتربيته وتعليمه وشيوخه ونقرأ في هذه الترجمة كيف أن الحافظ ابن حجر العسقلانى قد رعي السخاوي وتبناه علمياً وصقل موهبته حتي غدا علماً من أعلام القرن التاسع الهجري. (١)

كذلك تتلمذ السخاوي علي عدد كبير من العلماء والأئمة ومن بينهم الشيخ محمد بن عمر الطباخ، وعلي المزين رضوان العقبي، والبرهان بن خضر والشهاب أبي العباس الحناوي وصالح البلقيني والشرف المناوي والعز بن عبد السلام البغدادي والقلقشندي وأبي الفتح الفوي والكمال بن الهمام وأبي القاسم النويري وغيرهم وذلك في النحو واللغة والحساب والفقه والقرءات والبيان والتفسير. (٢)

وقد بلغ السخاوي درجة رفيعة من العلم وأجازه كثيرون من الأئمة في عصره في الفقه والأصول والحديث وأصوله، والعربية وفروعها وفي التدريس والإفتاء والأملاء.

وبعد وفاة ابن حجر رحل السخاوي إلي البلدان طالباً العلم فزار دمياط والتقي بعلمائها وشيوخها ووصل مكة وزار أماكنها الشهيرة، ثم زار مدينه رسول الله ﷺ، واتصل بمؤرخها الشهير البدر بن عبد الله بن فرحون وغيره من العلماء ثم رحل بعد ذلك إلي بلاد الشام فزار أهم المدن الشامية والتقي بكثير من العلماء ذكر أنهم زادوا علي المائة شخص من كبار العلماء. (٣)

وبعد هذا الترحال والتجوال في بلدان المسلمين ومراكز العلم عاد السخاوي إلي القاهرة واستقر بها. ومن الملاحظ أن السخاوي لم يقحم نفسه في الحياة السياسية في مصر، ولم يتدخل في مشكلات الحكم والسياسة ولم يكن له ولع بدسائس القصور والحكم مما يجعلنا ننظر لكتاباته ومؤلفاته نظرة خاصة لأنها تتسم بكثير من الحياد

(١) السخاوي: الضوء اللامع. حـ٨، ص٤، ٥

(٢) بلغ عدد الذين تتلمذ عليهم السخاوي أربعمائة استاذ وعالم وفقيه.

(٣) انظر ترجمة ضافية للسخاوي في مقدمة التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. حـ١ ص ص ٩ : ١٤

والموضوعية.

ولقد كان السخاوي دون شك علماً من أعلام المدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع الهجري ذلك أن ما قدم السخاوي من أعمال متنوعة يضعه بين مؤرخي هذة المدرسة رائداً مجدداً صاحب منهج متميز في كتابة التاريخ بل صاحب رأي في صناعة الكتابة التاريخية، وصاحب أسلوب نقدي جريء.

قاد السخاوي حركة فكرية نشيطة في القاهرة، وخلق جواً من الحوار الساخن بين رجال المدرسة التاريخية ورواد الحركة الأدبية في ذلك الوقت، واشتملت المساجلات بينهم مما سجلته لنا وثائق تلك الفترة وأهمها رد السيوطي علي أستاذة السخاوي في مقدمته التي أسماها الكاوي علي تاريخ السخاوي.(١)

لقد تعرض السخاوي بالنقد لكثير من علماء القاهرة وأساتذه عصره ومن بينهم ابن خلدون والعيني والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي الذي لم ير السكوت علي المسلك الذي انتهجه السخاوي في نقد زملائه وأساتذته.

ومع ذلك فقد شهد رجال العصر للسخاوي بالعلم والأستاذية والريادة، واعتبروه إمام القرن التاسع الهجري فقد رسخت أقدامه في شتي فروع العلم والحديث واللغة والفقه والتراجم والطبقات والتاريخ.

ويقول صاحب البدر الطالع: لو لم يكن للسخاوي من التصانيف إلا الضوء اللامع لكان أعظم دليل علي إمامته.

تعددت مؤلفات السخاوي وتنوعت، وكانت علامة مميزة بين مؤلفات المدرسة التاريخية في ذلك القرن ومنها:

العقد الثمين في مشيخه خطيب المسلمين.

الفتح العربي في مشيخه الشهاب القربي.

الجواهر المكملة في الأخبار المسلسلة.

بغية الراوي بمن أخذ عنه السخاوي.

---

(١) مقامة الكوي علي تاريخ السخاوي، مخطوط رقم أدب ٣١٩٣، دار الكتب- القاهرة.

الرحلة السكندرية وتراجمها.

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة لشريفة في ثلاث مجلدات.

التبر المسبوك علي ذيل السلوك .

الذيل علي قضاة مصر.

الذيل علي دول الإسلام للذهبي .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

إلي غير ذلك من المصنفات النفيسة التي تركها والشمس السخاوي صاحب منهج مستقل في التأليف والتدوين، ولعل كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ يدلل علي المقدرة العظيمة لهذا المؤرخ في إيضاح أبعاد علم التاريخ وتحديد مفهومه وموضوعه ومناهجه وفوائده.

كذلك فإن السخاوي استطاع أن يحدد الشروط التي يجب أن تتوفر في المؤرخ، ونستطيع أن نقرر أن السخاوي قد وصل إلي هذا المستوي الرفيع من الكتابة، وهذا المستوي المتميزمن الفكر لأنه كان مؤرخاً حراً، لم يقبل الإنخراط في وظيفة رسمية في الدولة ولم يقحم نفسه في السياسة، وكان يكره بشدة أن يلتزم بقيود وظيفية مهما علت مكانتها فلم يتأثر باتجاه معين أو برأي حاكم أو سلطان، وهذا في رأينا مما يضفي قيمة علمية كبيرة لمؤلفاته التي أوصلته إلي مكانة رفيعة بين العلماء حسده لأجلها أقرانه.

السخاوي إذن هو أعظم رجال المدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع بل أحد أعلام المؤرخين المسلمين في ذلك العصر، فقد عرف بأنه المحدث المدقق، والفقيه المحقق والمؤرخ البارع، والناقد اللاذع، والكاتب الجرىء صاحب المنهج الحر والرأي المستقل.

وتختم المدرسة التاريخية المصرية دورها المميز في التأليف التاريخي ومناهج البحث والكتابة فيه بالإمام العلامة، جلال الدين السيوطي. وحفظ القرآن الكريم

وهو في الثامنه من عمره، ثم حفظ الفية ابن مالك، ومنهاج أصول الحكم للنووي

السيوطي ٨٤٩: ٩١١هـ/ ١٤٤٥: ١٥٠٥م:

درس السيوطي الفقه والفرائض، وقرأ شرح الكافية لابن الحاجب وتتلمذ علي عدد من أئمة عصره كالشيخ الشرف المناوي وعلم الدين البلقيني وتقي الدين الشلبي ودرس علي يد العلامة محي الدين الكافيجي وعنه أخذ التفسير والأصول والعربية والمعاني وأجازه كثيرون من شيوخ عصره بلغ عددهم واحد وخمسون شيخاً

رحل السيوطي إلي كثير من البلدان فزار بلاد الشام والحجاز حيث أدي فريضة الحج وتعلم علي يد كثير من شيوخ الحرمين الشريفين وزار بلاد الهند واليمن، وارتحل إلي بلاد المغرب وتوغل في أفريقية فزار بلاد التكرور.

إنقطع السيوطي للعبادة والعلم وهو في الأربعين من عمره، وترك وظائفه التي كان قد تقلدها في التدريس والفتيا، ولزم داره عاكفاً علي الكتابة زاهداً في الدنياحتي وافاه الأجل عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.

والإمام السيوطي من رجال المدرسة التاريخية المصرية الذين تركوا بصمات واضحة فيها يدل علي ذلك مؤلفاته العديدة المتنوعة في التاريخ.

ومن أهم مؤلفاته التاريخية كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر وضع فيه جلال الدين السيوطي عصاره فكره وجملة تجاربه وذكر فيه مصادره وشيوخه الذين استقي منهم مادة الكتاب فيقول:

هذا كتاب سميته حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وأوردت فيه فوائد سنية. وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس وتكون للوحدة نعم الأنيس.(١)

ثم يضيف: وقد طالعت في هذا الكتاب كتباً شتي منها، فتوح مصر لابن عبد الحكم، وفضائل مصر لابن عمر الكندي، وتاريخ مصر لابن زولاق، والخطط

---

(١) السيوطي حسن المحاضرة جـ١ ص٣

للقضاعي، وتاريخ مصر لابن ميسر وإيقاظ المتغفل وإيقاظ المتأمل لتاج الدين بن محمد عبد الوهاب بن المتوج الزبيري، والخطط للمقريزي، والمسالك لابن فضل الله العمري ومختصره للشيخ تقي الدين الكرماني، ومباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الأنصاري، وعنوان السير لمحمد بن عبد الملك الهمداني وتاريخ الصحابة للذهبي، والإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر، ورجال الكتب العشرة للحسيني، وطبقات الحفاظ للذهبي، وطبقات القراء وطبقات الشافعية للسبكي وللإسنوي وطبقات المالكية لابن فرحون وطبقات الحنيفة لابن دقماق ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي وتاريخ الإسلام للذهبي، والعبر له ،والبداية والنهاية لابن كثير وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، والطالع السعيد في أخبار الصعيد للأدفوي، وسجع الهديل في أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشي والسكردان لابن حجلة وثمار الأوراق لابن حجة.

وهذا يوضح لنا منهج السيوطي، وحرصه علي أن يذكر من الأعمال كل ما أفاد منه في تأليف حسن المحاضرة، مما يؤكد علي أن الرجل قد اطلع بنفسه علي نفائس المؤلفات السابقة في التاريخ والتراجم والسير والخطط والطبقات والجغرافيا التي شكلت المصادر الأولية للكتاب، وهذا المنهج ولا شك هو المنهج الصحيح الدقيق في البحث التاريخي.

ولم يقتصر السيوطي علي مجرد ذكر المصادر التي اعتمد عليها في مؤلفاته بل إنه يذكر دواعي تأليف كتبه فمن ذلك يشير في مقدمة كتابه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة يقول :والدواعي إلي تأليف هذا الكتاب أمور منها:

١- الإحاطة بتراجم أعيان الأمة.

٢- تخليص تواريخهم من الخلط.

٣- إفراد كل طائفة منهم بكتاب شأنهم شأن النجاة واللغويين وغيرهم.

٤- أهمية أن يفرد كتاب للخلفاء من الأئمه أكد فيه علي أنه لم يورد أحداً ممن ادعي الخلافة خروجاً ولم يتم له الأمر ككثير من العلويين وقليل من

العباسيين.

٥- أكد السيوطي على أنه لم يورد أحداً من الخلفاء العبيديين لأن إمامتهم غير صحيحة في رأية

ومن هنا نرى أن السيوطي لم يكن يؤلف لمجرد التأليف، وإنما كانت هناك أهداف وراء كتاباته، ومنها تصحيح التاريخ، وإعادة كتابة ما يحتاج منه إلى ذلك.

ومن أهم آثار السيوطي في كتاب حسن المحاضرة أنه أورد لنا ثبتا بأسماء من كان بمصر من المؤرخين وهم:-

١ سعيد بن عفير.

٢- محمد بن عبد الحكم.

٣- محمد بن الربيع الجيزي.

٤- عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسي صاحب التاريخ على السنين قال ابن كثير ولد بمصر، وحدث عن أبي صالح كاتب الليث وغيره مات عام ٢٨٩هـ./ ٩٠١م

٥- الطحاوي.

٦- الحسن بن قاسم بن جعفر توفي عا ٣٢٧هـ / ٩٣٨م.

٧- أبو سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر.

٨- أبو عمر الكندي محمد بن يوسف بن يعقوب، صنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر، كان في زمن كافور.

٩- ابن زولاق أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الحسين المصري المؤرخ صنف كتاباً في فضائل مصر، وذيلاً على قضاةمصر للكندي، مات في ذي القعدة عام ٣٨٧هـ./ ٩٩٧م

١٠- المسبحي الأمير المختار عن الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد الحراني صاحب التصانيف، قال في العبر: كان رافضياً صنف تاريخ مصر، وكتاب في النجوم وكتاب التلويح والتصريح وتوفي عام ٤٢٠هـ./ ١٠٢٩م.

١١- القضاعي

١٢- القفطي الوزير جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني وزير حلب صاحب تاريخ النحاه، وتاريخ اليمن، وتاريخ مصر، وتاريخ بني بويه، وتاريخ بني سلجوق، ولد بقفط سنه ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ومات بحلب سنة ٦٤٠هـ./ ١٢٤٢م.

١٣- محمد بن عبد العزيز الإدريسي الفاوي، ألف المفيد في أخبار الصعيد، ولد في ٥٦٨هـ / ١١٧٢ وتوفي في ٦٤٩هـ. ١٢٥١/م .

١٤- جعفر بن محمد بن عبد العزيز الإدريسي الفاوي، ابن محمد المؤرخ السابق ألف تاريخاً للقاهرة ومات في ٦٧٦هـ. ١٢٧٧/م.

١٥- ابن خلكان القاضي شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الأربلي الشافعي صاحب وفيات الأعيان سكن مصر مدة، وناب في القضاء، ثم ولي قضاء الشام عشر سنين ثم عزل فأقام بمصر، ومات عام ٦٨١هـ١٢٨٢م.

١٦- أبو الحسن بن سعيد علي بن موسي بن عبد الملك الأديب الأخباري ولد بغرناطة، دخل مصر والشام وبغداد وألف المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق، والطالع السعيد في تاريخ تونس ومات في تونس عام ٦٨٥هـ/ ١٢٧٦م.

١٧- الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري صاحب التاريخ المسمي بزبدة الفكرة في أحدي عشر مجلداً، والتفسير مات في سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م

١٨- ابن المتوج محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيري أحد العدول بمصر ولد عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م وألف تاريخ مصر سماه: إيقاظ المتغفل وإتعاظ المتأمل ومات عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م.

١٩- الكمال الأدفوي أبو الفضل جعفر ين ثعلب بن جعفر صنف الطالع السعيد في تاريخ الصعيد ، والإمتاع في أحكام السماع وتوفي ٧٤٩هـ/ ١٣٣٨م.

٢٠- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري المؤرخ صاحب التاريخ المشهور توفي ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.

٢١- القطب الحلبي.

٢٢- ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن المصري الحنفي، كان لهجاً بالتاريخ، فكتب تاريخاً كبيراً جداً ومات عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م.

٢٣- صارم الدين محمد بن دقماق مؤرخ الديار المصرية جمع تاريخاً على الحوادث، وطبقات الحنفية وتوفي عام ٧٩٠هـ/ ١٣٨٦م.

٢٤- شهاب الدين الأوحدي أحمد بن طوغان ولد سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م. وكان لهجاً بالتاريخ، ألف كتاباً كبيراً في خطط مُصر والقاهرة مات عام ٨١١هـ/ ١٤٠٨م.

٢٥- تقي الدين المقريزي أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد مؤرخ الديار المصرية ولد سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م واشتغل في الفنون، وولي حسبة القاهرة وألف كتباً منها درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وعقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط وإتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، والسلوك بمعرفة أول دول الملوك، والتاريخ الكبير، وغير ذلك ومات سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م.

٢٦- ابن حجر.

٢٧- شيخنا العز الحنبلي..(١)

ومن هذه القائمة نرى أن السيوطي ألم لنا بمؤرخي مصر في نظره منذ بداية المدرسة التاريخية المصرية وحتي عصره، لكنه أغفل عدداً لا بأس به منهم ومن بينهم أساتذه السخاوي.

ونلاحظ أيضاً أنه لقب كلاً من ابن دقماق والمقريزي بمؤرخ الديار المصرية، ووصف المسبحي بأنه رافضي، وصمت عن البعض واكتفي بمجرد ذكر أسمائهم في

القائمة ووصف البعض بلقب المؤرخ مثل ابن زولاق والنويري، وأما ابن سعيد فنعته بالأخباري.

ولقد ترك السيوطي تراثاً ضخماً من المؤلفات التاريخية وغيرها فإلي جانب حسن المحاضرة وتاريخ الخلفاء صنف در السحابة ، ونظم العقيان في أعيان الزمان والشماريخ في علم التاريخ إلي غير ذلك من المؤلفات.

والسيوطي من الفقهاء المفسرين الذين عنوا بالتاريخ، لكنه لم يستطيع أن يصل في كتابة التاريخ إلي المستوي الذي ارتقي به في تصانيفه الفقهية.

لكننا يجب أن نؤكد علي القيمة التاريخية الكبري لمؤلفه تاريخ الخلفاء وتاريخ مصر المسمي بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة فهما في نظرنا أهم المؤلفات التاريخية التي قدمتها المدرسة المصرية.

والسيوطي من رجال المدرسة التاريخية المصرية الذين شهدوا ختام ذلك العصر الذي إمتاز بحرارة المنافسة العلمية وشدة النزاع علي الزعامة الفكرية في الحلبة الثقافية في القاهرة في ذلك الوقت الذي اشتهر ابن خلدون بأفكاره الجديدة ونظرياته التي سبق بها عصره

لقد استطاع ابن خلدون تحليل الظواهر السياسيه والاجتماعية والاقتصاديه التي عاشتها المجتمعات الاسلامية، كما استطاع أن يضع نظرية بحثيه جديدة أو علما جديدا New Science كما أدخل مفاهيم جديدة علي العقلية الوسيطة في الشرق والغرب علي السواء شهد له بها المفكرون الاوربيون القدامي والمحدثون.(١)

ويمكن القول ان ابن خلدون احد رجالات هذه المدرسة استطاع ان يطور صناعة الكلمة المدونة، وأن يدخل اسلوبا جديدا تفرد به وتميز علي غيره من معاصريه.

ولعلنا نشير إلي الصراع العنيف الذي السيوطي وبين شمس الدين السخاوي

1- Rosen Thal., Political Thought In Medieval Islam. P.8

Gibb. The Islamic Background Of ibn Khaldun.s Political Theory.P.167

الذي احتدم إلي درجة إتهام كل منهما للأخر بالعديد من التهم مما ظهر بشكل مؤسف فى مقامة الكاوي علي تاريخ كما أشرنا سابقا في حديثنا عن السخاوي.

ومع دخول العثمانيين مصر كانت المدرسة التاريخية المصرية تختتم ذلك العصر الزاهر وتستقبل مرحلة جديدة اكتسبت سماتها من طبيعة العصر الجديد وهو العصر العثماني في مصر الذي قضي بوصول سليم الأول إلي القاهرة علي دولة المماليك لتستقبل مصر كلها عصراً جديداً سجل لنا أحداثه الحزينة المؤرخ محمد بن إياس لكن مصر المعطاءة مالبث ان أفاقت من صدمة الاحتلال العسكري لأرضها وسرعان ما واصل رجالها العمل والعطاء اقتداء برجالات القاهرة ابن حجر والسخاوي والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي وغيرهم.

ولم تنقطع إسهامات المؤرخين المصريين بعد دخول العثمانيين مصرفقدْ استمر العطاء، وتواصل العمل علي عكس ما هو شائع بين بعض المؤرخين من أن حركة التأليف والتدوين التاريخي انقطعت بعد ابن ياس وذلك خلال القرون الثلاثة التالية للفتح العثماني وحتي ظهور عبد الرحمن الجبرتي.

والواقع أن تلك القرون الثلاثة قد قدمت العديد من المؤرخين المصريين الذين واصلوا المسيرة وأجزلوا العطاء فكانت مؤلفاتهم الأصلية التي وثقت تاريخ مصر والمصريين، وسجلت أحداث تلك المرحلة التي لولاجهودهم لاندثرت أخبارها وبادت ومن هؤلاء أبي السرور البكري صاحب المؤلفات العديدة لتاريخ مصر في عهد العثمانيين.

وبهذا تكون المدرسة التاريخية المصرية قد واصلت عطاءها تؤرخ لمصروللمصريين وتوثق الأحداث وتسجلها لتكون شاهدة علي العصر مؤكدة علي أن مصر غنية بمؤرخيها وعلمائها الذين لم يتوقفوا يوماً عن العطاء.